الخميـــــــس 21-04-2011

1328-فــي شـــــرف صحبـــــة نجيـــــب محفـــــوظ

خاتمة

فى يوم ما بعد 8/18 سنة 1995 (آخر يوم كتبت فيه الخواطر)

فليكن اليوم: 2011/4/20

هل حقا نحن الآن؟

بعد سته عشر عاما من توقفى:

أهكذا؟!!!

هكذا فجأة!! - ليس فجأة تماما- لكنها فجأة،

أكتشف أننى توقفت عن هذه الكتابة.

الحمد لله أننى كتبت ما كتبت

الحمد لله أننى توقفت.

لو كان النيل مدادا لكتابة ما عشته مع شيخى هذا لجفّ النيل، وأنا ما زلت أكتب وأكتب

الحمد لله أننى توقفت فعلا

أنا أحب هذا الرجل حبا جما.

أحبه الآن كما أحببته دائما

أحمد ربى أننى عشت فى عصر أفرزه، وأننى اقتربت، ولو متأخرا، من حضور وعيه مباشرة، وأننى لامست دفء نبضه،وحظيت بسماح إنصاته، واستمعت إلى سديد رأيه.

أقر وأعترف أن شيخى هذا، ما زال - حتى الآن- أكثرنا دهشة إذا وصلته أية معلومة مخالفة (حتى لو لم تكن جديدة).

وما زال أكثرنا أملا فى الغد، مع أنه أكثرنا انجراحا بالظلم.

وهو أكثرنا تحملا للغموض، مع أنه أكثرنا وضوحا فى الفكر.

كما أنه أكثرنا صبرا على الاختلاف مع أنه أكثرنا تحديدا فى المواقف.

كيف نجح وينجح فى كل هذا إلا أن يكون قريبا جدا من نفسه.

متصالحا متكاملا مع طبقات وعيه.

ممتدا جدا إلى آفاق كونه

متوجها أبدا إلى وجه ربه.

* * *

لا أجد ما أختم به هذا العمل إلا القصيدتين اللتين كتبتهما له، حتى لو كان قد جاء ذكرهما، أو بعض فقرات منهما، داخل المتن السابق.

القصيدة الأولى فى عيد ميلاده الـ 92

القصيدة الثانية بعد أن استأذن وقال لنا "كفى"، استأذن أن يلحق برحابه تعالى راضيا مرضيا، وكنا نشعر بذلك قبيل اختياره الرحيل إليه، بل لعله ألمح إلى بعض ذلك مرارا، ومع ذلك:

فزعنا،

ثم رضينا،

ثم دعونا لنا وله،

ثم مازلنا ندعو.

* * *

القصيدة الأولى:

فى عيد ميلاده الـ 92

... ما عاد رسم الحرفِ يقدر أن يحيط ببعض ما يوحيهِ لِى، فى عيد مولدك الجميل، فجرٌ جديد.

فى كل عام أحمدَ الله الكريم وأرتجيه يكون "يومِى قبلَ يومكْ"، وأعود أكتشف الحقيقة أننى لم أصدق الله الدعاءْ. طمعا بأن نبقى معا عاما فعاما.

.... كم أنت سهـلٌ معجز تسرى كمثل الماء إذ ينساب عذبا رائقا بين الصخور من الجليد وقد تربع شامخا فوق الجبل.

* * *

... زعموا بأنِّىَ قادرٌ أشفى النفوسَ بما تيسر من علوم أو كلام أو صناعهْ

عفوا، ومن ذا يشفى نفسى حين تختلط الرؤى، أو يحتوينى ذلك الحزن الصديق فلا أطيق؟

حتى لقيتـــك سيدى، فوضعت طفلىَ فى رحابكْ

طفلٌ عنيدْ

مازال يُدهش كلَّ يوم من جديدْ.

صالحتـــنى شيخى على نفسِىَ حتى صرتُ أقرب ما أكون إليه فينا،

صالحتـــنى شيخى على ناسِى، وكنت أشك فى بـــله الجماعة يُخدعون لغيرِ مَا هُـمْ.

صالحتـــنى شيخى على حريتى، فجزعت أكثر أن أضيع بظل غيري.

صالحتنى شيخى على أيامنا المرة مهما كان منها.

علمتنى شيخى بأنا قد خلقنا للحلاوة والمرارة نحمل الوعى الثقيل نكونـــه كدحا إليه.

* * *

وسألته يوما:"هل ثَمَّ حل فى الأفق"؟

فأجاب يحفز همَّتى: ''كلا''.

فسألته جَزِعاً: لماذا ؟

قال: "صاحبـــنا تصور أنه صار المسيح المنـــــتـــظـــر."

قلت : "الصليب نهايتــــه.."؟

فأجاب وهو يكاد يقرص بعض أذْنى: 'لسنـــا يهـــوذا'..... وهو ليس المنتظـــــر.

* * *

من وحى أحلام النقاهة- سيدى- نشطت خلايا داخلى:

" فحلمــتُ أنِّىَ حامــلٌ، وسمعتُ دقَّـــا حانيا وكأنه وعدُ الجنينْ. جاء المخاض ولم يكن أبدا عسيرا، وفرحت أنى صرتُ أمًّا طيبة، لكننى قد كنت أيضا ذلك الطفل الوليدْ، فلقفت ثدى أمومتى، وسمعت ضحكا خافتا. لا،.. ليس سخرية ولكن:

.... وسمعت صوتا واثقا فى عمق أعماقى يقول: 'المستحيلُ هو النبيلُ الممكن الآن بنـــا'.

لمست عباءتـــك الـرقـيقـة جـانـبـا مـن بـعـض وعـيـى، فــعـــلــمــت أنــــــك كــنــتـــه'.

وصحوت أنـدم أنـنى قـد كـنـت أحلم.

* * *

شيخى الجليل :

سامـح مـريـدكَ إذ تـتـطـاولَ فـاسْتـبـاحَ الـقـولَ دون الـبـوْح يـشـطَحُ تحت ظِلِّ سحابـة الـغـفـرانِ والـصـفـحِ الجميلْ.

الاهرام: 2003/12/15

فى عيد ميلاده الـــ "92"

*****

القصيدة الثانية: رثاء

"وعجلتُ إلـيك ربى لـترضى"

لِمَ قُــلـتَهـا شيـخِى: "كَفى"!!

مـاذا جرى؟

كـيف جرى؟

قـد كـنتَ فـيـنـا رائـحـاً أو غـاديـاً تخطو بـنـا نحو الـذى قـد صاغَنَا،

وجعلتَ إيـقـاع الحـيـاة لـه صليلٌ مثل نـبض الـكـون سعيـاً لـلـجليلْ،

حتى حسبـنـا أنها لا تـنتـهى،

وظللتَ تخطرُ هامـسـاً كـالـطـيفِ، كـالـروح الـشفـيفِ، كظلِّ رب الـكـون فـيما بـيننا،

وجعلت تـنحت جاهدا **لـتعيد تـشكيل الـبشرْ:**

حُـلـمـاً فحلـمـاً: واقـعـاً مـنّا، لـنَـا،

نـسعـى إلى عُمْق الـوجـودِ لـيـلـتـقـى فـيـنَا بِنَا،

"لـتَعـارَفُـوا"

هـذا "طريق الـزعـبلاوى"، نحـو وجـه الحق، نحـو الـنـور، نحو الـعدل، نحو الله فـيـنـا حولـنـا.

ومضيتَ تـقـهرُ كـلَّ عجزٍ، كـلَّ ضعف، كـلَّ هَمٍّ،

حتى دعْونـا ربَّـنـا أن تـقـهـر الـسـاعـات تـسحَـبُـنـا إلى المجهول إذْ تُـخفـى الـعدمْ,

حتى نسينا أننا بشرٌ لنا أعمارُنا

* * *

لِمَ قلتَها شيخى : "كفى"؟

الآنَ؟ كيف الآنَ؟ شيخى!؟ ربنا!؟ بالله ليس الآن،

إرجعْ عقارب ساعتكْ،

لا،

نحن لسنا قدْرُهَا،

ليستْ "كفى"

لا،

ليس هذا وقتُها،

أفلستَ تعلم أننا فى "عِز" حاجتنا إليك؟

أفلستَ تعرفُ ما جرى؟

أفلستَ تعرف كيف تنهشنا السباعُ الجائعة؟

أفلستَ تعرفُ أن ما يأتى بدونك لهْوَ أقسى ألف مرة ؟

لو كنتَ أقسمتَ عليهِ،

من أجل خاطِرنا،

لأبرّك الله العزيزُ بقدر ما وعد الذين هـُمُوا كمثلك.

لَمِ قلتَها شيخى: "كفىً؟

كنا نريدك دائما تخطو جميلا بيننا،

كنا نريدك خالدا فى قرة العين هنا،

كنا نريدك مثل أطفال أبوْا أن يُفطموا من حلو ما نهلوا عطاءك، مثلنا،

كنا نريدك نحتمى فى دفء بُرْدِكَ من برودةِ عصرنا.

لكنَّ خاتمة الكتاب تقررت، فسمعتّها،

وكتمتَهَا حِرْصا علينا،

وانسحبتَ برقةٍ وعذوبةٍ،

وتركتَنَا.

لِمَ هكذا؟

علـّمتنا شيخى بأنا قد خُلقنا للحلاوةِ والمرارة نحملُ الوعى الثقيل نكونُه سعيا إليه.

فـاجـَـــأتـَنـَا،
ورحلتَ دون سَؤاِلـنَا
وبـكـى الخميسُ لـقـاءَنـا،
وتـركـتَ بـيـتىَ خـاويـا فى كل جُمعةْ.

* * *

مـاذا جرى؟
كـيف جرى؟
هل يـا تـُرى : قـد كـان همسا مـن وراء ظهورنـا يـدعوك سرًّا:
ورجوتَ أن تـلقـاه شيخى بـعد مـا طال الـعنـاءْ؟
فـاستـاذن الجسدُ الـعليل بـشجّةٍ فى الـرأس كـانـت عابـرة؟
لا لم تـكن أبـدا مصادفـة ً، ولم يـشأِ الـقـدرْ،
كـانـت نـذيـراً بـالـوداعْ،
قـَطـَعَتْ حِبـاَلَ وِصَـــالـنـا
فـتـهتك الـعهدُ الـقـديمُ وحرَّرَ الجسدَ الـعنـيدْ،
والـشيـخ درويـشُّ "الـزقـاقِ" يـقـولها:
"لا شىء دون نهايـةٍ"
وهِجاؤهـا:
"قـد حـان وقـتُ لـلرحيل".

* * *

عًـلمـتنـا شيـخى الجـليل:
أن الخـلـودَ بهذه الـدنـيـا عدمْ،
والمـوتُ لا يـُنـهى الحيـاةَ لـكلِّ من أعطاهـا مـثـلَك نـفسَهُ،
المـوتُ يـنقـلهـا إلى صُـنّـاعهـا من بـعض فـيضك،
قـد كـنتَ رائـدَ حملهـا
يـا لـلأمـانـة !!
يـا ثـقـلهـا !!!
هل جـاء من أنـبـاكَ أنـّا أهلُهـا؟
حتى الجـبـال أبـيْنَ أن يحِمْـلـنـَهـا.
كـيف الـسبـيلُ، وكـلُّ هـذا حولها ؟

* * *

لـكنَّ مـا قـدّمـتَ علَّمـنـا "الـطـريـق" إلـيـه عـبْـرَ شِعَـابـهـا:

لّمـا عـرفـتَ سـبـيـل دربـك نحـوه،

كـدْحـاً إلـيـه :

ودخـلـتَ فى عـمـق الـعـبـاد تـعـيـد تـشـكـيـل الـذى غـمـرتـْه أمـواجُ الـضلالْ، حتى تـشـوّه بـالـعـمـى والجـوع والجشع الجـبـانْ،

* * *

شـيـخـى الجـلـيـل:

مـا دمـتَ أنـتَ فـعَـلـتْـهـاَ

فـانـعَـمْ بـِهَـا

واشـفـعْ لـنـا

أن نُـحـمـل الـعـهـدَ الـذى أوْدَعْـتـنَـاَ

شـيـخـى الجـلـيـل:

نَمْ مـطـمـئـنـا،

وارجـع إلـيـه مُـبْـدعـاً،

عـبر الـبـشـر،

وادخـل إلـيـهـا راضـيـا،

أهلاً لهـاَ.

* * *

بـعـد الخـاتمـة

يـا تـرى لمـاذا تـوقـفـت؟

مـرة أخـرى: لـيـسـت عـنـدى إجـابـة،

وقـد تـكـون الإجـابـة غير مـطـلـوبـة أصلا.

كـتـبـت هـذا الـعـمـل هـكـذا، ربمـا لأنـنى أحـسـسـت أن هـذا بـعـض ديـن علـىّ لـشـيـخـى هـذا، أى لمـصر، أى لـلـنـاس،

شـعـرت أنـنى لـو فـوّتُ الـفـرصـة، فـقـد أسـاءَل مـن ربى عـمـا وصـلـنى، ولمـاذا لم أبـلـغـه لأصـحـابـه: أهـل مـصـر أولا، ثم الـنـاس فى كـل مـكـان، ربمـا،

لـكـن الـسـؤال يـعـود يـلـح مـرة أخـرى: لمـاذا تـوقـفـت؟!!

ومـع ذلـك فـهـذا مـا كـان.

لعلها مصادفة طيبة سمحت بهذه الفرصة لأقدم للناس بعض ما "وصلنى منه" فى تلك الفترة المحدودة، بضعة شهور، مجرد بضعة شهور، مع أننى عاشرته سنوات عددا.

وهل كان يمكن أن تكون أكثر؟

هذا ما سمحت به فرصة عابرة

حدد ربى بدايتها ونهايتها دون إرادة واضحة منى.

* * *

وبعد:

بدءًا من النشرة القادمة سوف ننتقل لنكمل قراءة فى **"كراسات التدريب"**

كنا قد نشرنا حتى الصفحة (23) من "الكراسة الأولى" ثم توقفنا حتى لا تختلط الأفكار مع اختلاف المنهج،

وأدعو الله أن يعيننى أن أكمل المهمة:

لست أدرى كيف!